فكر الريحاني السياسي

بقلم أحمد ماضي

يتسم فكر أمين الريحاني السياسي (*) بمعاداة النظام البرجوازي وديمقراطيته الشكلية المزيفة وفضح المدنية الاوروبية الغربية لاعتمادها الاستغلال والحروب والإستعمار . والجدير بالذكر ان الريحاني من أوائل المفكرين العرب الذين أدركوا أن الثورات البرجوازية التي انفجرت في الماضي لم تغير من طبيعة الاستغلال وجوهر العبودية بالرغم من اندلاعها تحت شعار الحرية والاخاء والمساواة . ان كل ما فعلته الطبقة الرأسمالية هو تبديل أشكال وصور الظلم والاستثمار . ومع ان الاستغلال ظل قائما ، فان الثورات البرجوازية كانت تقدمية في تطور المجتمعات البشرية ، فقد دكت النظام الاقطاعي وقامت بتطوير سريع لوسائل الانتاج بصورة لا نظير لها . أما الوعود البراقة التي نادت بها من حرية واخاء ومساواة فقد ظلت حبرا على ورق نظرا لان الحرية الاقتصادية التي تؤلف أساسا جميع الحريات الاخرى بقيت غائبة وارتدت المساواة لدى القانون طابعا شكليا في فحواها وتجلى « الاخاء » في استغلال الرأسماليين للجماهير الشغيلة وبخاصة الطبقة العاملة . وبهذا الصدد كتب المفكر العربي : « بشر فلاسفة القرن الثامن عشر بالاخاء والحرية والمساواة ونهض تلاميذهم فطالبوا بهذه الحقوق وسل الشعب سيفه على الملوك في اكثر ممالك أوروبا فحدث ما حدث من الثورات والفتن في آخر القرن الماضي . فماذا كانت النتيجة ؟ هل سادت الحرية ؟ هل شملت المساواة الناس ؟ » (١) . وبحكمته السياسية تأكد من ان المساواة في البلدان الرأسمالية وعلى الاخص في الولايات المتحدة الاميركية شكلية ووهمية طالما ان العامل خاضع وتابع للرأسمالي من الناحية الاقتصادية ، ولهذا كان يرى أن لا فائدة ترجى من الحرية السياسية التي يتمتع بها الفقراء لان الدستور في قبضة الاغنياء ، والديمقراطية السياسية ، على الرغم من أهميتها ، زائفة وباطلة بلا ديموقراطية اقتصادية . « ما الفائدة للخادم من الحرية التي تتوقف على ارادة سيده الخبيثة الجائرة ؟ ما الفائدة من الحرية السياسية التي يكفلها القانون اذا كان القانون في قبضة الاغنياء ؟ أبعد حرا من لا يملك نفسه ، من لا رأي له ولا روح ، من كان وجدانه مقيدا بوجدان من يتوقف عليه معاشه ؟ » (٢)

ان هذا الكلام يشهد على ان الريحاني قد أدرك بعمق ان الحرية السياسية التي يتمتع بها العامل لا قيمة لها طالما انه تابع للرأسمالي ولقمة عيشه متعلقة بارادته. كما أدرك أن الاستغلال هو طابع العلاقات القائمة بينهما بصرف النظر عن الدعاية البرجوازية . فالقيمة الفائضة لا تنتج الا على حساب استغلال الرأسمالي للعامل بصورة بشعة . ولن يزول هذا الجور الفادح الا بجعل وسائل الانتاج ملكا للشعب بأسره ، وذلك لان الملكية الخاصة هي أساس الاستغلال ومصدر أرباح البرجوازيين. ان حلول الملكية العامة كفيل لحصول كل شغيل على أجر يكافىء الجهد المبذول . « ما الفائدة للعامل يا ترى من معرفته انه وصاحب العمل متساويان اذا كان صاحب العمل لا يجازيه عن عمله بعدل وانصاف ؟ المساواة الحقيقية اذن هي أن يجازى كل على عمله » (٣) .

ولما كان يعرف ان العمال في البلدان الرأسمالية لا يتقاضون أجورهم بعدل وان ما يحصلون عليه يعرقهم وكدحهم غير كاف للقيام بأدوارهم وأود عيالهم فقد وقف الريحاني الى جانبهم في نضالهم من أجل زيادة الاجور قائلا : « ان كل ذي عقل مفكر وقلب حساس يرى صحة دعوى العمال وعدالة مطالبهم » (٤) .

ان استغلال الجماهير الكادحة مسألة قديمة يرجع ظهورها الى أول مجتمع طبقي ـ المجتمع العبودي ـ . ولن يقضى على ظاهرة الاستغلال الا بتصفية الملكية الخاصة ووصول الجماهير الشعبية الى السلطة . وسيبقى الاستغلال والفقر ما دامت الاحكام في أيدي ذوي المصالح الانانية الضيقة المحصورة في نطاق الطبقة الحاكمة المستغلة . ولذلك آمن المفكر العربي بأن القضاء على الاستغلال عملية مرتبطة بوصول العمال الى المجلس النيابي الذي يسن القوانين لصالحهم . « انه (سبب الفقر) مشكلة قديمة ولكنها تظل جديدة لا تحل ما دامت الاحكام في أيدي ذوي المآرب والاغراض الذاتية . لا تحل ما دام من يستطيعون حلها بعيدين عن المجالس التي تسن الشرائع والقوانين » (٥) .

(*) أحاول في هذه المقالة التعرض لبعض الجوانب الايجابية في فلسفة الريحاني السياسية دون التطرق الى السلبيات التي تحتاج الى بحث خاص .

(١) الريحانيات في جزءين ـ الجزء الاول ـ ص ٩١ .

(٢) القوميات في جزءين ـ الجزء الاول ـ ص ٢٦ .

(٣) الريحانيات في جزءين ـ الجزء الاول ـ ص ١٣٧ .

(٤) الريحانيات في جزءين ـ الجزء الاول ـ ص ٩٢ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٩٦

ومن رأيه ان السعادة تتحقق في توزيع المال توزيعا عادلا . أما الشقاء فكان يراه في تكتل المال وتضخمه انطلاقا من كون المال يعمر البلدان اذا رافقه العلم وحب الانسانية ، ويخرب الممالك اذا انحصر استخدامه في حب الذات والمصالح الخاصة . لقد كان واثقا من ان خيرات الارض تكفي سكانها اذا ساد العدل في توزيعها على عكس رأي المالتسوسية التي تتبنى رأيا مغايرا تماما . ان المشكلة الاولى هي عدالة التوزيع والقضاء على متاعب التخمة بين أقوام جياع . لذلك كان يقول : « متى يستريح القلة من التخمة ويأمن الجمهور من الجوع » (٦) .

وقد فهم الاشتراكية على انها القضاء على الفقر والثروات الضخمة . « .. أن يقضى على الفقر وعلى الثروات المالية المتكتلة في المجتمع الانساني . هذا ما أفهمه من الاشتراكية » (٧) .

ومن الملاحظ ان فهمه للاشتراكية محدود ولا يتعدى القضاء على الفقر وتكتل الثروات ، مع ان هذا الاجراء يشكل أحد الاهداف الرئيسية . ان الاشتراكية هي النظام الذي لا يصفي استغلال الانسان لاخيه الانسان فحسب ، بل يحقق تقدما مطردا في شتى ميادين الحياة ومناحيها ، وعلى الاخص في الانتاج المادي الذي يشكل البناء التحتي لكل دعائم ومقومات الحضارة . ومن الحق أن نقول أن الريحاني لم يستطع أن يدرك المضمون الشامل للاشتراكية .

وعند الحديث عن ايديولوجية الريحاني السياسية لا مناص من القول انه كان من انصار نظرية الحقوق الطبيعية . فمن رأيه ان لكل منا حقوقا متساوية لا يجوز لاحد أن يسلبها ، وهي تنشأ في الحياة المدنية التي نعيشها . « ان حرية الحركة من حقوقي الطبيعية وحرية التحزب من حقوقي السياسية وحرية الفكر والضمير من حقوقي الذاتية » (٨) . ولا ريب ان هذه النظرية لعبت دورا تقدميا حين نشوء البرجوازية ، بيد ان هذه الحقوق ظلت شكلية نظرا لخضوع الجماهير الكادحة خضوعا اقتصاديا للطبقة الرأسمالية . وانطلاقا من هذه النظرية هب ضد جميع القيود التي تكبل حرية الانسان ، أكانت قيودا عائلية أو اجتماعية أو دينية أو سياسية ، وذلك لان الحرية هي ضالة الانسان المنشودة وغايته القصوى في الحياة . ولعل أول ما نلاحظه ان الريحاني كان ينادي بحصول الانسان على جميع الحريات . أما ان فقد احداها فان حريته تكون ناقصة . فالحرية السياسية بلا حرية دينية ناقصة وكذا الامر بالنسبة للحرية الدينية ان كانت تفتقر الى الحرية الخلقية . ولهذا كان يقول : « ان كان المرء حرا سياسيا ومقيدا دينيا وخلقيا فحريته ناقصة » (٩) . وقد أطلق على الحرية الشاملة الكاملة اسم الحرية الروحية . وتتجسد الاخيرة في امتلاك الانسان لنفسه أن يكون حرا بصورة مطلقة من القيود التي تضغط على روحه وعقله. وقد أيقن ان الحرية لا تتحقق بمحض ارادة المستعمرين وعملائهم مؤكدا على ان الحرية تنتزع بالتضحية . فاذا أردنا الحرية فما علينا الا أن نطلبها بالقوة ، ومتى حصلنا عليها لزم المحافظة على بقائها بالسلاح . أما اذا طلبناها بوسيلة أخرى مثل الكتابة والعرائض فستكون حرية مقيدة بارادة الغير ومصلحتهم السياسية . لذلك لم يكن من قبيل المصادفة ان يقول ان « الحق الذي لا تؤيده القوة انما هو حق خيالي شعري .. » (١٠) . لقد اقتنع بأن القوة هي السبيل الوحيد لتحقيق الحرية الحقة ونزع الحقوق الوطنية . وعندما نتوقف في هذه الايام لكي نتأمل هذه الموضوعة نقول ما احوج العرب في هذه المرحلة العصيبة الى فكر ثاقب ناضج يرتفع الى مستوى الاحداث ليدرك ان بلادنا المحتلة وحقوقنا المغتصبة لا يمكن الظفر بها الا بالقوة وانطلاقا من « منطق ومواقع القوة » . ومن المسلم به ان الاعتماد على « الحلول السلمية » في عصرنا هذا امر ثانوي قلما يحقق الاهداف والمثل الثورية .

أما موقفه من الجندي الذي يصوب بندقيته الى جماعة مسلحة بالحق او شعب يطلب الحرية والاستقلال فيدل على وعي ثوري اصيل لاصول واهداف استخدام السلاح . وليس خافيا على احد ان عددا غير قليل من جنود جيش فيتنام الجنوبية العميل ينتقلون بين الفينة والفينة الى صفوف جيش التحرير الفيتنامي لادراكهم ان تصويب السلاح ضد اناس مسلحين بالحق ويناضلون في سبيل حق تقرير المصير يتفق مع مبادىء الوطنية الحقة. وفضلا عن ذلك نرى ان كثيرا من الجنود والضباط الاميركان يرفضون الخدمة العسكرية في فيتنام انطلاقا من مثل هذه الموضوعة . وكان من الطبيعي ان يعتبر الريحاني رفض التطوع امرا طبيعيا يجب ان يتعداه الجندي ليصوب السلاح ضد حكومته الجائرة التي تود استعباد شعب يناضل في سبيل حريته واستقلاله . وبهذا الشأن كتب « افلا يحق للمرء ان يرفض التطوع في جند الدولة اذا كان ذاك الجند يخوض حربا ظالمة ! افلا يحق لمحب الحق والحرية ان يستل سيفه على حكومته اذا رآها تحارب ظلما وعدوانا لتقتل استقلال شعب ضعيف تسلب حريته ! » (١١) . والذي لا يساورني شك فيه هو ان اليوم لن يكون بعيدا عندما يهب كل جندي وضابط يحارب في جيش ذي طابع عدواني يقاتل من اجل سلب استقلال وحرية الشعوب الضعيفة ضد حكومته ليصوب سلاحه الى المعتدين الذين يودون

(٦) المصدر السابق ، ص ٩٧ ـ ٩٨ .
(٧) أدب وفن ، ص ١٩٥٧ .
(٨) الريحانيات في جزءين ـ الجزء الاول ـ ص ١٦٧ .
(٩) القوميات ـ الجزء الاول ـ ص ٢٧ .
(١٠) المصدر السابق ، ص ١٢١
(١١) ـ الريحانيات في جزءين ـ الجزء الاول ـ ص ١١٥

الاستعباد والاستعمار . وعندئذ لن تكون هناك فرصة سانحة امام سالبي حريات الشعوب كي يحققوا اهدافهم الدنيئة . وقد طبق المفكر العربي هذه الموضوعة على الحرب التي اندلعت بين اليابان وروسيا القيصرية في مطلع القرن الحالي فاعتبرها حربا جارية بين دولتين مستبدتين ظالمتين لانه لم ير فيها اي اثر للحق ولا صدى للحرية . « ماذا يهمني من حرب جارية بين دولتين مستبدتين ظالمتين شعارهما العبارة القديمة الفاسدة « الحكم من الله » . ماذا يهمني من حرب لا روح للشعب في نارها ولا اثر للحق ولا صدى للحرية في دوي مدافعها وفي صلصلة حرابها ؟ » (١٢) .

وهكذا نلحظ ان الريحاني قد فهم بعمق طبيعة الحروب الامبريالية الاستعمارية التي تستهدف ايجاد اسواق جديدة لتصريف منتجاتها الصناعية ومصادر رخيصة للخامات والمعادن .

وتجدر الاشارة الى ان الريحاني نظر الى الثورة على انها سنة من سنن الحياة وناموس من نواميس التطور والرقي وما على الزعماء والقادة الا الخضوع لها والعمل على تحقيقها . وقد قال بهذا الصدد : « .. الثورة سنة والزعماء مسوقون بها ، عاملون لها ، حاملون بنودها ، مستمدون من انوارها ، كل على قدر طاقته » (١٣) . ولم يكتف بالاقرار بأن الثورة سنة فقط بل اكد على انها ليست من صنع الافراد « الابطال » . ان بمقدور الافراد العظماء ان يؤثروا في الثورة بيد ان هذا التأثير لا يكون حاسما وجوهريا وانما طفيف ثانوي . ان بمستطاع الرجالات العظام ان يغيروا في فروع الحوادث ولكن ليس بمقدورهم ان يمارسوا التأثير في اصولها . فجوهر الثورات يظل على ما هو عليه وكل تغيير انما يطرأ على ظاهرها . « .. ان رجلا عظيما في كلمة يرتجلها او في عمل يعمله .. قد يغير مجرى الحوادث التاريخية المهمة. قد يصح هذا في فروع الحوادث لا في اصولها . من من الزعماء كان في سرعة الخاطر اعظم من ميرابو ؟ ومن من رجال السياسة كان في البداهة والاقدام اعظم من بسمارك ؟ على ان ميرابو لو شاء ايقاف الثورة او تحويل مجراها لما استطاع . ولو خدم بسمارك غير الوحدة الالمانية لما ظهر سريا عبقريا . ولو عمر ميرابو لاستطاع في الاكثر تلطيف فظائع الثورة الافرنسية ولو مات بسمارك قبل ان يتم عمله لاتمه بعده سواه . في الحياة ناموس يعلو به النوابغ ولكنهم لا يعلون عليه . ان شجاعة الرجال وفطانة الزعماء وبداهة السياسيين تؤثر بظواهر الحوادث لا بجوهرها » (١٤) .

ومن الحق ان نقول أن الريحاني ادرك بعمق تفكيره ومعرفته لتاريخ الثورات والامم ان الثورة ليست من صنع « ابطال » و « رجالات عظام » بل هي ظاهرة موضوعية تفجرها ارادة الجماهير وفقا لقوانين مستقلة عن وعي الناس ، وما عليهم الا معرفة واكتشاف هذه القوانين واستخدامها لتحقيق الاهداف الثورية . ان الثورة حصيلة جهود ونضال جماهير غفيرة صممت على الوصول الى ما تصبو اليه . والقادة في مثل هذه الاحوال ليسوا الا متجاوبين مع ارادة الجماهير والسير الموضوعي لتاريخ المجتمعات البشرية . وهدف الثورة هو القضاء على الجور والفساد في الامة والتخلص من التقاليد البالية والخزعبلات في عقول الناس . « .. الثورة مطهر الامة وقد ثارت على ما فيها من الظلم والفساد . ان الثورة مطهر الانسان وقد ثار على ما في نفسه من قديم التقاليد والخرافات » (١٥) .

وبعد هذا العرض المقتضب لفلسفة الريحاني السياسية يغدو من البديهي ان يتجه بفكره نحو الاتحاد السوفياتي اول بلد اشتراكي حقق حكم العمال والفلاحين والمثقفين الثوريين وقضى على استغلال الانسان لاخيه الانسان وصفى اضطهاد شعب لاخر وبنى اقتصادا متطورا وانجز انتصارات علمية وتكنيكية مذهلة في حقبة تاريخية قصيرة . وتجدر الاشارة الى ان المفكر العربي اعتبر التجربة الاشتراكية في بلاد السوفيات منقطعة النظير في تاريخ الانسان . واذ طلب مراعاة الصبر في الحكم نهائيا على هذه التجربة الجديدة فقد ارتأى ان ليس من العدل والانصاف ان نشجبها او نحكم عليها بصورة تعسفية . ومع انه طلب التحلي بالصبر ، فقد رأى في التجربة السوفياتية ما يدعو للتفاؤل والاغتباط . لقد ايقن ان السوفيات محبون للانسانية وغيورون على تقدمها ورفاهيتها . كما انهم ذوو مثل عليا واهداف نبيلة ويقومون بمنجزات عظيمة . واعتقد ان من الافضل سرد الكلام الذي قاله عن الاتحاد السوفياتي :

« تقوم اليوم في بلاد السوفيات تجربة اجتماعية سياسية اقتصادية منقطعة النظير في تاريخ الانسان ، ويجب علينا ان نصبر لنرى نتائجها . ليس من الحق

(١٢) المصدر السابق ص ١١١

(١٣) القوميات في جزءين ـ الجزء الاول ـ ص ٨٠

(١٤) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(١٥) التطرف والاصلاح ، ص ٢٤

منشورات دار الاداب

تطلب في

الدار البيضاء (المغرب)

من

مكتبة دار العلم
للنشر والتوزيع

٤٠ شارع اللكي ـ الاحباس

تلفون ٦٢٣٠٩

ولا من العدل ولا من الحكمة ان نسارع الى شجبها او نحكم اعتباطا عليها . فقد تكون في نتائجها افظع التجربات وقد تكون اكثرها خيرا ونعمة . علينا ان نصبر . والصبر في مثل هذه الانقلابات الاجتماعية لا يحسب صبرا اذا قيس بحقبة لا تتجاوز العشرين او الثلاثين سنة . على ان هناك ما يدعو للتفاؤل والاطمئنان وخصوصا في ما يتعلق بشؤون الاسرة وتطورها . فاذا قرانا تشريع السوفيات في الزواج والطلاق وفي الامومة ورعاية الاطفال تيقنا ان اولئك المتشرعين ليسوا من الشياطين او من الجن بل هم مثلك ايها القارىء ومثلي انس عقلاء بصراء ذوو مثل اعلى ، محبون للجنس البشري غيورون على خيره ومثابرون على العمل الذي يستمر فيه ناموس النشوء والارتقاء . اجل انهم ينشدون المثل الاعلى لخير الانسان في هذه الدنيا ويعملون لتحقيق الاعمال الجبارة مهما يكن من خلل فيها او شذوذ » (١٦) .

والواقع ان هذا الموقف من الاتحاد السوفياتي في تلك الحقبة يدل على ثورية الريحاني وبعد نظره في التحليل السياسي ، لا سيما اذا اخذنا بنظر الاعتبار ان جزءا كبيرا من فئة المثقفين العرب لم يفهم ما يدور في الاتحاد السوفياتي او وقف موقفا ارتدى طابعا معاديا استنادا الى ما بثته الدعاية الغربية من سموم في عقول الناس حتى لا يعرفوا الحقيقة الموضوعية عما يحققه السوفيات من انجازات وانتصارات في شتى الميادين والمجالات وحتى لا يصبحوا من انصار الاشتراكية العلمية ويناضلوا في سبيل تغيير المجتمع العربي تغييرا ثوريا بهدف القضاء على جميع اصناف الاضطهاد والاستغلال. بيد ان الحقيقة لم تطمس الى ابد الدهر ، فسرعان ما انقشع الضباب وذابت الثلوج واضحت التجربة السوفياتية معروفة لدى اوساط واسعة جدا من فئات وطبقات مجتمعنا العربي . ولا شك ان الريحاني لو قام بزيارة للاتحاد السوفياتي ودرس التجربة الجديدة لادرك على الطبيعة ما استطاع ادراكه ببصيرته النفاذة من خلال الكتب والمقالات التي كتبت عن الاتحاد السوفياتي ولعرف الكثير من الامور الخافية في ذلك الحين . لقد كانت احدى امانيه ان يقوم بزيارة لهذه البلاد انطلاقا من اهتمامه بالتجربة الاشتراكية وحرصا على معرفة الحقيقة . وقد عبر عن امنيته في رسالة حررها الى المستعرب العالم السوفياتي الشهير كراتشكوفسكي عام ١٩٢٨ : « وان من اماني ان ازور بلادكم لادرس احوالكم الجديدة الاجتماعية والسياسية . فعسى ان تتحقق الامنية كما تحققت تلك في رحلتي العربية » (١٧) . ولكن هذه الامنية لم تتحقق ، فقد وافته المنية قبل ان يزور اول بلد اشتراكي في العالم .

موسكو — **احمد ماضي**

(١٦) الريحانيات في جزءين ـ الجزء الثاني ـ ص ٢٠٦

(١٧) رسائل امين الريحاني ١٨٩٦ ـ ١٩٤٠ ، ص ٣٣٨

أبي والمنفى

أأنت يا ذا الشاعر الذي يلفه الضباب
والفسق الكئيب والخراب
أليس غير النار في لهيبها
تقتحم الاهوال والسدود ؟
ولم تزل ، ولم يزل يصرخ في أعماقك السؤال
ولا يرد الصمت في أعماقك الجواب
لكنهم لم يدركوا ... هل تدرك الرياح ؟
ما تنثر الزهرة من بذورها للعقم ، للضياع
يا أيها الليل ... غدا ينسدل الستار
ولم تزل للتيه ... للرياح
وللطلول ينعب الغراب
في ساحها ، فوق جدارها العتيق
يا ألف باب في شحوب الصمت
في زنزانتي يصطفق
ولا قدوم زائر .. سوى صدى الرياح
وزهرة يابسة ... وغير سهد الهاجسات
وغير أصداء تشق وحدتي ..
تقول لي « أبوك مات »
وراية سوداء ، والغيوم ، والدموع
تقول لي .. « أبوك مات »
كان له قلب من الصمت الذي لا يبوح
بجرحه لا يعرف الانين
كانت له عينان كالبحر ، كأعماقه
في لجة الاشواق .. والحنين
كانت له يدان مكدودتان
كان يرى ، يدري بأني لها
نذرت أيامي .. ولكني كسير الجناح
وقبل أن تلمح عيناه شراع الصباح
مات أبي .. مات قبيل الصباح ...

يا ألف باب في شحوب الصمت ..
في زنزانتي تصطفق
ولا قدوم زائر سوى صداه ...
عيناه لا تحلمان يداه لا تومئان ..
ولا صدى ... سوى صدى الرياح
تقول لي .. مات ولم تطبع على جبينه قبلة
يا أيها الشريد .. والغيوم والدموع
وأفق هذا الليل رايات من الشموع
وألف باب في الدجى تصطفق
ولا قدوم زائر .. سوى صدح الرياح
سوى صدح الرياح ...

برلين — **كاظم السماوي**